وفتح لها أفقاً أوسع للتفطن والاستشراف ، وقد آلمني حقاً أمر هذه الفتاة . فهي تشعر شعوراً عميقاً بهذا الجمال الغزير وتأبى إلا أن تشرك غيرها معها في هذا الشعور ، وهي نزعة طبيعية ملحوظة في جميع الناس . فليس أحد يشعر بجمال الفن سواء أكان طبيعياً أم صناعياً ، إلا يرغب أن يرى من يساهمه فيه الأحساس ويشاطره المتعة ، ولعلّ متع الفن هي المتع الوحيدة التي لا يخشى المرء فيها الشركة ، بل هي المتع الوحيدة التي لا تطيب نفسه ولا يحسّ بها أرهف الاحساس وأحده ، إلا إذا كان من يشاركه . فكأن كثرة الناظرين أو السامعين لآيات الفن ، المرايا تتقابل حول الصورة فتضاعف الأشباح وتزيد الصور .

* * *

ويئس صاحبنا من صرف الفتاة عما تريد من النظر والتلفّت ، فراح يتلهى بالصغيرين ويناغيهما ، وانتهى به الحديث معهما والمناغاة إلى صيغته بعينها جعلها لازمة حديثه وهي : يا بابا ! صباح الخير يا بابا ! وراح يرددها ويدهورها في حنجرته طوال الطريق . وخيل إلى أن الرجل لن يكف عن ترديدها ولو أمسى المساء ، وضاقت به الزوجة الوديعة ذرعاً (وللصبر حد) وطلبت اليه متوسلة أن يكف عن الحديث ، أو يغير هذه العبارة التي يوشك أن يتبرم بها الصغيرين ! وصمت قليلاً . تخيل إلينا أننا قد ارتحنا بهذا القليل من الجرأة من هذه القدر المقرقرة . غير أنه ما عتّم حتى عاد وكأن عشرين ضفدعاً تنق في حلقه ! ولعله خشي إذ صمت أن نحسبه ذلّ وخنس . فضاعف الصخب وزاد الجلب ، وقلت : ليتك يا فتاتي لم تحاولي إسكاته ، فقد زدته ضراماً على ضرام . على أنه لم يمض حتى فاجأه أحد الصغيرين بقيء شديد ملأ صدره وانحدر يسيل إلى أسفل ، وهنا عبس الأب وانقطع عن المناغاة ، واضطر أن يشتغل باماطة ما علق بصدره من هذا السائل المبارك ، وقلت في نفسي : عوفيتَ معدة يا صغيري ! فقد أبرأت سقمنا ، وجازيته جزاء وفاقا ، وليت معدتك أوسع قليلاً فقد نحتاج إليها مرة أخرى .

* * *

وبلغت السيارة دمشق . وغادرتها وفي القلب ما فيه من غصة وألم بهذا الدهر الأهوج الذي يجمع بين الأنسان وشبه الأنسان .

أديب عباسي

في الأدب الدرامي

١٠ ـ الرواية المسرحية

في التاريخ والفن

بقلم أحمد حسن الزيات

الملهاة في عهدها القديم

أول ما نال الملهاة الأغريقية من العناية كان في صقلية . وكانت يومئذ مقصورة على تصوير العادات العامة دون تلميح إلى السياسة . وكان عميدها في هذا القطر إيكارم (٤٥٠ ق م) . فلما انتقلت إلى أثينا تقلب بها الزمن . فمر بها على أدوار ثلاثة : دور الملهاة القديمة ، ودور الملهاة الوسطى ، ودور الملهاة الحديثة . فالقديمة تمتاز بكثرة النقد الشخصي الصريح ، فتسمي الأشخاص وتعين الحوادث . وكانت تستمد موضوعاتها من الوقائع اليومية . وتتمتع بالحرية المطلقة في مهاجمة العظماء . والوسطى ظلت كتلك تهاجم أشخاصاً معينين ، ولكنها عفت عن ذكر أسمائهم ، وأخذت تمثل أنماطاً من الناس وصوراً من الأخلاق . وأما الحديثة فلم تطلب الجاذبية والتشويق في الحوادث اليومية والأهاجي الشخصية ، وإنما طلبتهما في تعقيد العمل الروائي ، وتصوير الأخلاق العامة . وأشهر من عالج الملهاة القديمة أرسطفان (٤٥٠ — ٣٨٧ ق م) وقد كان معروفاً بصفاء الأسلوب ، ومرارة الهزل ، وشدة الوطنية . غير أن مناظره كانت خليعة فاحشة . أما الملهاة الوسطى والحديثة فلم يؤثر منهما غير قطع منثورة مشتتة ، حتى سنة ١٩٠٧ ، فعثروا على ملهاة تكاد تكون كاملة ، وهي ملهاة التحكيم لمينائدر .

وكان للملهاة عند الرومان من العناية والحظ ما لم يكن للمأساة ، فقد نبغ فيها كثير منهم ، أشهرهم (بلوت ٢٢٧ — ١٨٣ ق م) وقد سار على نهج إيكارم ، إلا أنه عرف بسرعة العمل الروائي ، ونشاط الحوار ، دون تصوير للعادة ، ولا تحقيق للخلق . ثم (تيرانس) (١٩٢ — ١٥٩ ق م) ، وقد قلد مينائدر ، وامتاز

فى هزله بالحرارة والأناقة والأدب وتنويع الأخلاق والصدق فى وصفها .

ثم هجرت الملهاة فى القرون الوسطى ، وخلفتها فى الشهرة والذيوع الرواية الرمزية الخلقية (Moralités) ، والملهاة العامية (Farce) ، والأحموقة (Sotisè) ، فلم يدب فيها دبيب الحياة إلا فى القرن السادس عشر . فعادت إلى الظهور فى ثوب الملاهى الأغريقية والرومانية ، غير أنها كانت مصبوغة باللون الحديث ، مطبوعة بالطابع الفرنسى . وما زالت الملهاة تتردد بين الكساد والنفوق ، وتترجح بين الهبوط والصعود ، حتى جاءها موليير (١٦٢٢ — ١٦٧٣) فأقرها فى نصابها ، وشرع السبيل إلى كتابها ، وطبعها بطابع الملاحظة القوية والحرارة القلبية والذوق السليم . وقد عالج موليير أنواع الملهاة المختلفة بالنظم والنثر : فله غير الملاهى المجونية والاشكالية ، ملاهٍ اجتماعية : كالمتحذلقات السخيفات ، والنساء العوالم ، والحضرى الشريف ؛ وملاه خلقية : كترتوف ، ودون جوان ، والمتوحش ، والبخيل .

كان موليير يتناول العيب أو الحمق وهو فى عنفوانه ، فيصور منه مناظر طبيعية صادقة ، ثم ينتهى من هذا التصوير ببيان عواقبه الوبيلة على صاحبه وعلى المتصلين به . فتصوير العيوب هو أكثر ما فى ملاهى موليير . أما التعقيد الروائى فواهٍ ضعيف ، والحل فى جملته يعوزه الامكان والمنطق ، إذ ليس نتيجة طبيعية لحوادث العمل . ثم ذهب موليير وأعقبه رنيار (١٦٥٥ — ١٧٠٩) فكتب طائفة من الملاهى الاشكالية كالقامر والذاهل ، ولكن أخلاق أشخاصه ليست محددة الرسوم ، وإنما ملأها بالنكات المضحكة ، حتى قال فيه (چوبير) (رنيار يهزل هزل الخدم ، وموليير يمزح مزاح السادة)

ومر القرن السابع عشر ، ولم يشتهر فى الملهاة غير هذين الكاتبين . ولما جاء القرن الثامن عشر ظهرت فيه طائفة من الملاهى الجيدة . كملهاة تركاريه Turcaret أو المالى ، للكاتب لساج (١٦٩٨ — ١٧٤٧) فضح بها حديثى النعمة من المثرين ، وحلاق أشبيلية ، وزواج الفيجارو لبومارشيه (١٧٣٢ — ١٧٩٩) وهما ملهاتان قويتان إلا أنهما لم تراعيا حقوق الأسرة . ثم المسارات الباطلة ، والوصية ، والتجربة ، لمارسيفو (١٦٨٨ — ١٧٦٣) وهى ملاهٍ عُنى فيها كاتبها بتفصيل الدلال ، وتحليل الحب ، دون العناية بتصوير الأخلاق ووصف العادات . ثم اشتهر القرن التاسع عشر بنخبة من الملاهى القيمة لطائفة من نوابغ الكتاب . كبيكار (١٧٦٩ — ١٨٢٨) ، وسكريب (١٧٩١ — ١٨٦١) ، ولابيش (١٨١٥ — ١٨٨٨) ، وأوجييه (١٨٢٠ — ١٨٨٩) ، واسكندر دوماس الصغير (١٨٢٤ — ١٨٩٦) ، وفيكتوريان ساردو (١٨٣١ — ١٩٠٨) . وقد كان النوع الغالب على هؤلاء الكتاب هو الملهاة الاجتماعية (Comédie de moeurs) مشوبة بالمذهب الطبيعى ، فقد أخذ أوجييه ودوماس يقللان فيها من تعقيد اسكريب وجاء هنرى بيك (١٨٣٧ — ١٨٩٩) مؤلف (الغربان) فمحا التعقيد وتوخى بساطة العمل وسذاجة الأسلوب . ثم انقلب المذهب الطبيعى من بعد هؤلاء إلى مذهب المسرح الحر ، وهو مذهب سطحى الفكرة خامد الحركة ، يهزأ بالقواعد المسرحية ، ولا يتقيد بالعمل الروائى ، وإنما يكتفى بتكثير المناظر المضحكة ، وتصريف الحوار فى مختلف النكات المستطرفة الحديثة . ولم يدم هذا المذهب الخليع إلا قليلاً ، ثم أودى به إسرافه وتهوره . وظلت الملهاة الاجتماعية أو الجدية أو المبكية تسير مع الزمن ، وتتطور مع أهله ونظمه ، حتى حلت محل الدرامة الابتداعية (le drame romantiqne) ، وأصبحت اليوم موضوع المسرح الحديث كما سنبينه عند الكلام فى الدرامة .

تلك حال الملهاة فى فرنسا . أما حالها فى إيطاليا فقد ظلت خافتة الصوت ضعيفة الأثر قليلة النجح حتى القرن الثامن عشر . فما كان يظهر منها قبل ذلك العهد إلا نوع غير مسطور ، يرتجله الممثلون تبعاً لخطة مرسومة من قبل . فلما نبغ الكاتب (جولودينى) (١٧٠٧ — ١٧٩٣) وهو عند الايطاليين كموليير عند الفرنسيين ، أسس قواعد الملهاة ونهج سبيلها لبنى قومه .

وأما فى اسبانيا فملهاتها الوطنية كانت ملهاة المعطف والسيف (Comédia di capa a espady) وهى نوع من الرواية المنزلية ، بطلها دَرِعٌ من أدعياء الشجاعة الذين يسمونهم ماتامور matamore (أى قاتل العرب) لأن الرجل من هؤلاء كان يملأ ماضغيه فخراً بكثرة ما قتل من العرب كذباً وادعاء . وكانت عنايتهم فى هذا النوع بتعقيد الحوادث أشد من عنايتهم بتصوير الأخلاق . وأشهر تلك الملاهى : الطاحون ، وكلب البستانى ،

للوبى دى ڤيجا (١٥٦٢ — ١٦٣٥) ؛ وساخر أشبيلية ، وتديم بطرس ، لجربل تلّز ؛ والحقيقة المرتبة لرويز دالرّكون (١٦٣٩) وهى التى استمد منها موليير أخلاق ملهاة (الكذاب) .

وأما فى انجلترا فلم ينبغ فى الملهاة غير شكسبير (١٥٦٤ — ١٦١٦) فقد كتب : (ثرثارات وتدسور الفرحات) ، وجمجمة ولا طحن (Much ado about nothing) وتيمون ألخ ، وهذا كل ما تجده من الملهاة الأصيلة فى الأدب الانجليزى .

أما غيره فقد اكتفى باقتباس الملاهى الفرنسية أو تقليدها . وأما فى ألمانيا فلم ينفق فيها غير الملهاة العامية فى ألعاب (المرفع) ، وهو نوع من التمثيل المضحك البذئ . أما الملهاة الأدبية فلم يؤثر عن الألمان منها إلا شئ قليل القيمة عديم الأثر ، على رغم مانال كوتزيبو وإيرمان ، وبلوم ، وبيندكس ، وهكلندر من الفوز .

تحليل موجز لأشهر ملاهى موليير

كانت الملهاة قبل موليير تعتمد على قوة المواقف بدلاً من تصوير العواطف ، وعلى المضحكات الخيالية بدلاً من المضحكات الطبيعية ، وعلى أسماء الأجناس بدلاً من أسماء الأشخاص ، وعلى العمل الخارق المستحيل بدلاً من العمل الواقعى الممكن . فكانت خليطاً مبهما من الأسماء ، ومكارم ساقطة من السماء ، وعفواً فى موضع الانتقام ، وتهريجاً غريباً من التقاليد الأغريقية والرومانية والاسبانية والايطالية . فجاء موليير فخلق الملهاة الفنية الحقيقية لجميع العالم ، ولذلك نكتفى بأن نحلل بعض ملاهيه نموذجاً لبناء الملهاة ، وتقسيم فصولها ، وتدبير عملها ، وتدريج جاذبيتها .

* * *

(المستوحش Le misanthrope) صورة لرجل كريم غالى فى الصراحة والتشدد حتى كان موضع الهزؤ والسخرية ، وهى من الملاهى الخلقية التى لا وجود للعمل الروائى فيها . أهم أشخاصها : ألسست المستوحش ، وهو خطيب سليمين ، وفيلنت صديق ألسست ، وهو رجل لطيف المعاشرة ، إلا أنه مفرط المزاح ، وسليمين فتاة أرملة تسعى إلى الاعجاب من طريق الزهو والصلف ، وأورنت حبيب آخر لسليمين ، واليانت بنت عم سليمين ، وآكاست وكلتياندر مركيزان ، وأرسيونيه صديقة سليمين . وقد وقعت حوادثها فى باريس فى قصر سليمين .

الفصل الأول : ألسست وصديقه فيلنت فى قصر سليمين ينتظران خروجها عليهما ، وفى أثناء ذلك يؤنب ألسست صديقه فيلنت على أنه لقى رجلاً فى عرض الشارع لا يكاد يعرفه ، فبالغ فى تحيته وإكرامه . فهو يقول له : إن مثل هذا العمل لا يزكو بالحر ولا يتسع له العذر . وفيلنت يجيبه فى مداعبة ورفق : إن المرء مادام فى الناس مقضيٌ عليه أن يسايرهم بالصانعة ، ويعاشرهم بالمواربة ، والحياة تحب التظرف ، والعقل يكره التطرف . ولكن ألسست مسرف فى بغض الناس فلا يستمع له ، حتى أن له قضية منظورة فى المحكمة لا يفكر فيها ولا يشغل باله بها اعتمادا على ظهور حقه ، بل يتمنى أن يخسرها لتهيئ له أسباب السخط والحفيظة على ظلم الانسان . على أنه بالرغم من انقباضه واستيحاشه يحب فتاة أرملة تدعى سليمين ، ولكنه يعترف بدلالها وخلاعتها ، ويأسف لأنها تستقبل فى بيتها كثيراً من الخطاب والأحباب ، وهو لذلك يريد أن يستطلع رأيها فى هذا الموضوع . ويدخل على الصديقين فى هذه الساعة أورنت — وهو خطيب آخر لسليمين مولع بقرض الشعر — فينتظرها معهما . وفى أثناء ذلك يرجو منهما أن ينشدها قصيدة من نظمه ، فيستحسنها فيلنت ويستهجنها ألسست ، ولكنه يمسك على ما فى نفسه منها ، ثم يلح عليها من الآخذ ، وينتهى به الأمر الى التصريح بأنها سخيفة ركيكة ، فيخرج الشاعر غضبان يتوعد . ويقول فيلنت لصديقه وهو يحاوره : هاك خصومة جديدة جلبتها على نفسك بافراطك فى الصدق وغلوك فى الصراحة .

الفصل الثانى : (بهو سليمين والنيبة) . يلقى ألسست سليمين فيلومها على خلاعتها ، ويريدها أن تصرح له بحقيقة حبها ورغبة قلبها ، فيقطع عليهما الحديث قدوم (آكاست) و (كليتاندر) ، ثم (اليانت) و (فيلنت) فيأخذون مجالسهم ، ويخوضون فى أعراض الناس ، وتجيد سليمين وصف النفوس اللئيمة ، فيعجبون بها ويصفقون لها . ولكن ألسست ينكر ذلك منها ، ولا يجرؤ على مجابهتها بالانكار ، فتنفجر مراجل غضبه على المراكيز لتصويبهم رأيها . فاذا ما تسايل الغضب عن وجهه عاد الى سليمين يسألها أن تعلن من اختارته من الخطاب ، ولكن شرطياً يقتحم الباب فجأة ويدعوه الى المحكمة للفصل فى الخصومة التى بينه وبين أورنت .

الفصل الثالث : (خبث الرياء وعبث الدلال) كذلك المركيزان آكاست وكليتاندر يريدان سليمين على أن تعلن من اختارته منهما ، وتقبل (أرسيونيه) صديقة سليمين فيخرج المركيزان وتخلى الصديقتان فتتبادلان السباب فى أسلوب المناصحة : تحكى أرسيونيه لسليمين فى لهجة مرة مايرميها به الناس فى الأندية والمجامع من الخلاعة والتهتك ؛ وتحكى سليمين لأرسيونيه ما يتقوله الناس عليها من المراءاة بالحشمة وهى داعرة . ويدخل عليهما ألسست فتخرج سليمين لتكتب رسالة وتتركه مع أرسيونيه فتنتهز هذه الفرصة لايغار صدر ألسست على سليمين فتريه أنه مخدوع وأنها خادعة ، وتعده أن تقيم له على خيانتها إياه الدليل .

الفصل الرابع : (رسالة سليمين) يأتى فيلنت فيعلن أن الخصومة بين ألسست وأورنت قد انتهت بالصلح ، ويدخل من بعده ألسست وهو ينتفض من الغضب ، وفى يده كتاب غرام من سليمين إلى أورنت جاءته به أرسيونيه دليلاً على خيانة خطيبته فيقول : آه ! لقد خاب الرجاء ، وضاع الأمل ، وظهرت الخديعة ، وبان الغدر ! فترضاه سليمين بالدهاء ، وتفثأ غضبه باللاطفة ، ويجرى بينهما الحديث ، ولكن خادمه يأتى مسرعاً إليه ينبهه إلى أن شرطياً جاء يقبض عليه فى خصومة .

الفصل الخامس : (المقاطعة) يخسر ألسست قضيته التى أهملها فينحى باللوم والسخط على فساد الحياة ولؤم الناس ، ويعثر آكاست وكليتاندر على رسائل لسليمين فيقرآنها على السست ويستيقنون جميعاً بأنها تخونهم وتخدعهم . وينصرف عنها المركيزان ويبقى السست مقيداً بسلاسل هواها ، فيعدها بالعفو عما سلف إذا رضيته زوجاً وعاشت معه فى خلوة الريف ، فترفض طلبه . فيأس المستوحش ويعتزل الناس وهو يقول :

وفى الأرض منأى للكريم عن الأذى
وفيها لمن خاف القلى متعزل

ملحوظات على الرواية :

الفصل الأول آية من آيات الفن ، فقد عرض فيه المؤلف فى حوار قوى على لسان فيلنت وألسست أسماء الأشخاص الأصليين وأخلاقهم ، وذكر غضب السست وغرامه ، وبرودة قلب فيلنت، وخلاعة سليمين ، واخلاص إليانت ، ورياء أرسيونيه الخ . أما التعقيد فيؤخذ عليه ضعفه وبطؤه ، إلا أن العمل كان وبسط الأخلاق متدرج . والحل يعيبه بعض النقاد بالنقص من غير حق . فان سليمين جوزيت على خلاعتها وخبها بأن هجرها خطابها جميعاً . وألسست اعتزل العالم ، والمركيزان ذهبا يعرضان زهوهما الأجوف فى مكان آخر ، وفيانت واليانت يستعدان لحفلة الزفاف .

يتبع

(الزيات)

اكتتبوا فى أسهم

شركة مصر للغزل والنسج

بواسطة

بنك مصر وفروعه

قيمة السهم الواحد خمسة جنيهات مصرية

ينتهى الاكتتاب فى ٣١ ديسمبر ١٩٣٤

ولهذه الأسهم الحق فى الأرباح من أول يناير سنة ١٩٣٥